هوامش

تحتضن مدينة الدار البيضاء مجموعة من التحف المعمارية التي تستقطب السيّاح من حول العالم، لكنّ معلماً واحداً يكتسب شهرة كبيرة بسبب جمالياته، وهو مبنى محكمة الباشا

يخلو بناء «محكمة الباشا» من الإسمنت والحديد (وولفغانغ كاهلر/Getty)

محكمة الباشا

جماليّات الهندسة الأندلسية في الدار البيضاء

الدار البيضاء ـ **أشرف الحساني**

تُعدّ «محكمة الباشا» من أجمل المآثر المعمارية الموجودة في الدار البيضاء. المَعلم بدأ بناؤه عام 1941 من قبل باشا المدينة، الطيّب المقري، رغبة منه في بناء محكمة إدارية في حي «الأحباس» الشهير في المدينة، من أجل ضبط وحلّ نزاعات الساكنة في ذلك الحيّ الجديد، وفي نفس الوقت يكون مقراً له كرجل دولةٍ. لكنْ وبحكم الظروف الصعبة التي كان يشهدها المغرب إبّان الحرب العالمية الثانية (1939-1945) واستنفاذها لمختلف المواد الحديثة في البناء، قرر المهندس المعماري الفرنسي أوغست كاديت (1881-1956) بناء المعلم بمواد مغربية محضة، حتى يعطي للمبنى بُعداً أندلسياً. ولأنّ بناء المعلم كان هاجسه إدارياً، فقد جعله أوغست يمتد على مساحة واسعة تُقدر بحوالي 6000 متر، على شكل مكاتب إدارية كثيرة تتوسّطها مساحات صغيرة فارغة، جعلها المُهندس أشبه بلوحات موريسكية مصنوعة من الخشب والزلّيج والجص، ما جعل معمارها تتويجاً مُستحقاً لمَشاغل الحرفيين المغاربة، الذين تميّزوا بصنائعهم التراثية المُذهلة وعاشوا هناك في حي «الأحباس». على هذا الأساس، يُعتبر المعلم وثيقة بصرية هامة بالنسبة للمعماريين والفنانين والفوتوغرافيين، إذْ تُساعدهم على اجتراح أفقٍ جماليّ مُغاير لتجاربهم الإبداعية، حيث اللون يحتفظ ببريقه، والصورة العامة تُعطي الانطباع بالمكانة التي تبوّأها الحرفي المغربي في ذلك الوقت. خاصة وأن الشكل الهندسي الداخلي، يبدو وكأنه قد تم تصميمه على مقاس عملياتٍ حسابية، حيث يبرز عنصر الدقة في بعض زوايا المعمار، وحجم التزاويق وأنواعها وتناغمها بصرياً مع مكونات أخرى تجد أصلها ودلالاتها الوجودية داخل العمارة العربية الإسلامية الموجودة في المشرق والمغرب. يخلو بناء «محكمة الباشا» من الإسمنت والحديد، حيث تم استنفاذهما خلال الحرب العالمية الثانية في عملية التجنيد والتجييش وصناعة السفن وإعداد الأسلحة، ما جعل هذه المواد باهظة الثمن وتحتاج إلى طلب دائم للحصول عليها، لا سيما وأن المغرب كان في تلك الفترة، ما يزال تحت ظلال الاحتلال الفرنسي وخاضعاً للسلطة السياسية الفرنسية، لكنْ بتمثيلٍ صوري من لدن السلطان. هذا الأمر، بقدرٍ ما شكّل حاجزاً منيعاً للمعلم، بدا بعد الاستقلال وكأنّه عامل حظٍ للتراث المغربي. لكنْ بعد حصول المغرب على استقلاله عام 1956، وجد المعنيّون بالتراث الأثري المغربي صرحاً معمارياً قوياً في «محكمة الباشا»، باعتبارها من أهم المعالم التي تُجسّد الطراز الموريسكي في الدار البيضاء، وتُحاكي بصرياً بعض تصاميم المَساجد الأندلسية وتراثها العريق. ذلك أنّ الزائر المحلّي والسائح الأجنبي، يندهشان من الأبعاد التركيبية التي تحبل بها البناية التاريخية، فقد حرص أوغست كاديت على المزج بين عناصر فريدة في المادة ذات إيقاعات بصريّة مُختلفة كالقوس والزخارف والجص والخشب. هذا إضافة إلى إدخال العنصر الديني كعُنصر هام ومُكوّن للعمارة المغربيّة، رغم الطابع القانوني الذي عُرف بهذا الفضاء داخل الاجتماع المغربي.

هكذا عمل أوغست كاديت على جلب أرفع الحرفيين من مدنٍ تاريخية، كفاس ومكناس وآسفي ومراكش، للعمل على البناية المَخزنية. ذلك أنّ الطيّب المقري لم يجعل منها فقط بناية حكومية تابعة لدار المخزن، بل أقام فيها لسنوات طويلةٍ، بوصفه مُمثّلاً للسُلطة السياسية بالمدينة الجديدة بالدار البيضاء. ورغم أهمية المعلم من الناحيتين التاريخية والقانونية، إلا أن الأبحاث والدراسات التي تناولت «محكمة الباشا» أو «قصر الباشا» بالدرس والتحليل المونوغرافيين، ركّزت على البُعد الجمالي للمعلم وطرق صناعته وصياغته كمشروع فنّي حالم، طالما راود الفرنسي أوغست كاديت وعمل على تحقيقه في حيّ «الأحباس»، باعتباره نموذجاً للطراز الأندلسي، وذلك بقرار من السُلطة المخزنية المركزية، التي ارتأت نقْل وتوسيع دار المخزن وإعادة بناء محكمة جديدة تفصل في قضايا الشأن العام ومُنازعات الناس فيما بينهم، في أمور اجتماعية تتعلّق بالعقار والزواج والطلاق والممتلكات الجماعية. والحقيقة أنّ ذكاء الفرنسي أوغست كاديت، لم يبقَ حبيس الجانب الصنائعي المُرتبط بمعمار «محكمة الباشا»، بل قدرته الهائلة في الجمع بين المرئي واللامرئي في صياغة هذه التُحفة المعمارية. لأنّه أولى اهتمامه الكبير للجانب الخارجي للعمارة، يجعل الناظر من جهةٍ أخرى يتماهى بصرياً مع وبشكلٍ باطني مع عناصر الزخرفة والأقواس والخشب المحفور بطريقة يستيقظ في جسده هسيس التاريخ وفتنة الذاكرة، حيث تُصبح العين خاضعة لأنظمةٍ بصريّة وجماليّة يصعب عليها في لحظةٍ ما الابتعاد عن المنظر المعماري.

باختصار

المعلم بدأ بناؤه عام 1941من قبل باشا المدينة الطيّب المقري، رغبة منه في بناء محكمة إدارية في حي «الأحباس» الشهير في المدينة، من أجل ضبط وحلّ نزاعات الساكنة في ذلك الحيّ الجديد، وفي نفس الوقت يكون مقراً له كرجل دولةٍ

■■■

قرر المهندس المعماري الفرنسي أوغست كاديت (1881-1956) بناء المعلم بمواد مغربية محضة، حتى يعطي للمبنى بُعداً أندلسياً وجعله يمتد على مساحة واسعة تُقدّر بحوالي 6000 متر

■■■

عمل أوغست كاديت على جلب أرفع الحرفيين من مدن تاريخية كفاس ومكناس وآسفي ومراكش للعمل على البناية المَخزنية

وأخيراً

وليد سيف في «النار والعنقاء»

معن البياري

يأتي الممثل جمال سليمان، في حديثه في فيلم «الفصل الأخير»، الوثائقي، عن صديقه الراحل المخرج حاتم علي، (أنجزه تلفزيون سوريا وبثّه في الذكرى الأولى لرحيل حاتم علي)، على مشهدٍ من مسلسل «صقر قريش» (2002)، يُخاطب فيه عبد الرحمن الداخل جمعا من أنصاره في غضون واحدةٍ من معاركه لتوطيد سلطته وحكم الدولة الأموية الثانية في الأندلس، لحثّ الهمّة على محاربة خصوم له ولهم، ويذكّرهم بعصبةٍ قبليةٍ فيهم وعصبة أولئك. وفي الأثناء، تتجه الكاميرا إلى بدر الذي كان بين الجمع، وهو قائد الجيش، وخادم عبد الرحمن ومولاه ورفيقه في رحلة الفرار من الشام إلى الأندلس، هو الذي بلا عُصبةٍ قبلية. رومي، لم يذكُر له المؤرّخون نسبا، ولم يكتبوا عنه سوى سطرين أو ثلاثة، عِمادها أن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام اصطحب معه في رحلة النجاة والهرب الطويلة خادمه بدر. يؤشّر جمال سليمان إلى هذه اللقطة واحدةً من دلائل كثيرة على ذكاء حاتم علي مخرجا. وهذا صحيحٌ، وللإضافة عليه، لا يُنسى أن هذه الشخصية العابرة، العارضة، المهملة، الغائبة تقريبا، في مرويات المؤرّخين، كانت مركزية في المسلسل الجميل، وأدّى الدور المغربي محمد مفتاح ببراعةٍ. وفي هذا، كان حاتم علي أمينا للسيناريو والنص الذي كتبه وليد سيف برؤيةٍ إلى التاريخ لا باعتباره وقائع وأحداثا وأخبارا، وإنما ماضيا هو الآن، بمعنى أن في محمولاته الكثير مما يعرّفك على ما يقوى به بنيان الدولة وشوكة السلطان وعمارة الحكم، وعلى ما يُضعف هذا كله. ليست مقولة «الإسقاط» هنا جائزة، لأنك عند وليد سيف تبقى في التاريخ، وإنما بعيني كاتبٍ يحترف التقاطَ الدرامي، وصناعَته، ليصير مشهدا وفرجة، وليكون، من قبل ومن بعد، ممتعا، وجذّابا، ويشيع في العقل والوجدان أسئلة بلا عدد، عن أمة المسلمين، عن الطغيان، عن التمكين، عن القتل والغلظة وانعدام الرحمة، بل وعن المذابح الشنيعة وسائل للجلوس في مقعد الأمير أو الخليفة، والحفاظ عليه وتوريثه، وحمايته من المتربّصين، الأقربين والأبعدين. ليست ذكرى وفاة حاتم علي وحدَها استقدمت «صقر قريش» إلى هنا، وإنما أيضا بهجة صاحب هذه الكلمات بقراءته، في خواتيم العام الذي ينصرف، رواية «النار والعنقاء» بجزأيها «الرايات السود» و«صقر قريش» (الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان، 2021)، والتي يواصل فيها كاتبها وليد سيف مشروعَه، تحويل أعماله الدرامية إلى رواياتٍ مقروءة، المعاكس للشائع المعهود، وقد صدرت قبل شهور «مواعيد قرطبة» عن مسلسل «ربيع قرطبة» (المسلسل الثاني في الثلاثية الأندلسية مع حاتم علي). وربما، أراد سيف، في أن يسبق الثاني الأول عمليْن مقروءيْن، الإيحاء بكسر مقولة الثلاثية الذائعة، وعدم وجوب النظر إلى «الأدب الروائي المصوّر» بتتابع المقتضى التاريخي الكلاسيكي، وإنْ نُصبح هنا في انتظار المسلسل الثالث «ملوك الطوائف» نصّا مقروءا، في العام الجديد ربما («التغريبة الفلسطينية» بالمناسبة»). لقد أوْلى وليد سيف الخادم بدر مساحة باهظة في عمله، الباذخ في حيوية لغته وبلاغة مُرسلاته وتعدّد محكياته في جغرافيات وتنوعها في الشام ومصر وفلسطين والمغرب والأندلس. أعْمل مخيلته كثيرا، لمّا منح بدر، وشخصيات أخرى، أثوابا لم تلبسها في محفوظات القدامى، وذلك لأنه لا يقصد تأريخا، وإنما أن يُجري على ألسنة الشخصيات وقائع تنطق بمفارقات التحالفات لمّا تصير عداوات، وأن يبثّ في عبد الرحمن الداخل كل تناقضات الحكم وتحوّلاته،

> تبقى عند وليد سيف في التاريخ، بعيني كاتب يحترف التقاط الدرامي، وصناعَته

الفتى الأموي الذي كاد لا يحتمل نفسه لما أجْهز على لصّ أراد قتله، في رمال صحراء قاسية، في واحدةٍ من وقائع الهروب الكبير، يواسيه خادمه بدر، ويُعلمه أن هذا من تدابير الدنيا وتصاريفها، غير أن الأمير عبد الرحمن، تاليا، لا يرفّ له جفن وهو يأمر بقتل آلاف الأسرى بعد معركتين مع خارجين عن سلطانه، ولا يكترث لاستفظاع بدر هذا منه. لا تؤاخِذه نفسه عندما يأمر بقتل ولدي أخويه، بعد أن أغواهما حب السلطة، واندفعا إلى التآمر عليه .. يفزع كثيرا الأمير الأموي (حكم الأندلس 33 عاما) من تذكّر قتل أهل الرايات السود بوحشيةٍ أخاه الصغير قدام عينيه، لكنه لا يفزع من غير هذا. وأنت قارئ «العنقاء والنار» تُصاب، على الأرجح، بفزعٍ ليس هينا، من هوْل أعداد جثث المقتولين في الكتاب، ومِنهم من علّقت رؤوسهم في الميادين، ومن أوتي برؤوسهم محشوّة بالملح.

قتل أبو جعفر المنصور عمه، وأبا مسلم الخراساني الذي كان له سهم كبير في إقامة دولة بني العباس. وفي آخر الصفحات، يحدّث عبد الرحمن الداخل خادمه العتيق، المبتعد عنه في خريف العمر، في مشهد أخير، صنعه وليد سيف متخيّلا، على غير ما جاء به لسان الدين بن الخطيب، «ليس المغلوبُ في معيار الحق والدين أحسن من الغالب، ولكنه كذلك في معيار نفسه ومعيار من هم في طاعته..».

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالا**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**